دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الروح تبحث عن جسدها مقاربة أنثروبولوجيه رواية السويداء أنموذجاً
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	الملحم، إسماعيل
المجلد/العدد:	مج 41, ع 495
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2012
الشهر:	تموز
الصفحات:	31 - 39
رقم MD:	460817
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الإنتاج الأدبي ، الجسد في الأدب ، الروح في الادب ، التحليل النفسي ، المذاهب الفلسفية ، التنويم المغناطيسي، رواية السويداء ، التحليل الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/460817

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

بحوث ودراسات

الروح تبحث عن جسدها
مقارنة أنثروبولوجيّة
(رواية السوداء أنموذجاً)

اسماعيل الملحم*

أنكيدو، أما زلت تبحث عن عشبة الخلود؟ هي ليست خارج روحك، وإن لم تلبس جسدك هذا الفاني
– أنكيدو أنت هنا أو هناك في زاوية ما من هذا العالم.

تأخذنا بعض الدراسات في الشرق والغرب، بعيداً عن المعتقدات المرتبطة بهذا المسلك الروحي أو ذاك، إلى موضوعة الموت والحياة تفسيراً أو تحليلا، إلى فرضيات كثيرة مازالت تقلق العقل البشري وتتحداه. وربما فَرَضَاً إلى مقولات نرددها بين الحين والآخر، إلى ثنائية الجسد والروح.

دخلت ثنائية الروح والجسد الفلسفة والمعتقدات الدينية وصارت جزءاً منها، وإن اختلف هذا المعتقد بين دين وآخر. وذهب الفلاسفة مذاهب شتى في تعريفهم للنفس أو الروح.

بحسب أرسطو، لا تدل الروح أو النفس على وجود كائن قائم بذاته، وإنما هي مجموعة الوظائف الحيوية التي يقوم بها الكائن الحي. مازلنا في كل آن نقرأ ونسمع عن ظهور تأويلات مختلفة من هذه الجهة أو تلك، ومن معتقد ديني أو تفسير ميتافيزيقي ومن مذهب إلى مذهب في الدين الواحد. فقد أرقت هذه الثنائية الإنسان منذ أبعد العصور. وللعامة تصورات عن الجسد والروح هي نتاج معتقداتهم وثقافاتهم ومستويات تناولهم لمثل هذه المفهومات.

لازم البحث في ماهية الروح وتجلياتها الاعتقاد بخلودها، مازج هذا الاعتقاد منذ عصور بعيدة عقائد قديمة لا تنحصر في مذهب واحد من المذاهب ولا في عقيدة دينية دون غيرها، بل أن وجوده كان سابقاً لوجود الطوائف والمذاهب والأديان المعروفة. ألم تشغل هذه المسألة جلجامش الباحث عن سر الخلود؟ ألم يتحدث ابن سينا عن النفس التي تكون في شوق طبيعي إلى الاشتغال بجسدها واستعماله والاهتمام بأحواله والانجذاب إليه؟ كما أنه دلّ مؤكداً أن النفس ستبقى بعد موت الجسد وهي باستقلالها عن الجسد لا تفنى معه لأنها خالدة.

ارتبط خلود النفس بعقائد متنوعة، وكانت فكرة التقمص هي أحد تجليات هذه العقيدة التي قدّر لها أن برزت كفكرة منذ القرن السادس ق.م، وربما أبكر من ذلك، وأخذت تتأثر بها طوائف ومذاهب من هنا وهناك. وشكلت جزءاً من عقائد ومعتقدات قريبة من بعضها حيناً وبعيدة عن بعضها أحياناً أخرى. وفسرها كل مذهب تفسيراً انفرد به دون غيره. ويقال أن الكنيسة حتى عام 553 كانت تؤمن بفكرة التقمص، ولم تكن هذه الفكرة العقيدة، مع مرور الزمن، غائبة عن فلاسفة اليونان (سقراط وأفلاطون وأرسطو). وقد قامت هذه الفكرة، أو أنها اشتقت المبدأ الذي يفرق في حياة الإنسان بين الروح والجسد... وما استتبعه من تنامي مبدأ خلود الروح كعقيدة لم ينفرد بها دين من الأديان السماوية، كما أن قالت به عقائد المصريين القدماء، والهنود، واليونان من قبل . في العودة– مثلاً– إلى فيثاغورس نراه يؤكد على خلود الروح، عندما يقول: لا تفنى الروح بفناء الأجساد.

---

* كاتب وباحث سوري.

"هبطت النفس من عالم المثل إلى الأرض، فليس ما يمنع انفصالها عن الجسد بعد الموت، عنصرها روحاني بسيط. وكان أفلاطون يردد أن الروح خالدة ومنفصلة عن الجسد تحمله في الحياة كغطاء، ثم تنبذه بعد موته" (١)

ومنه، قول أبو العلاء المعري:

والجسم كالثوب على روحه	**ينزغ إن يخلق أو يتسخ**

وبالنسبة للمسلك التوحيدي (الدرزي)، فالمائز له أن يؤمن الموحَّد بخلود الروح وباتخاذها الأجساد قمصاناً كلما بلي قميص أبدل به قميص آخر. (٢)"

وحديثاً أخذت فكرة التقمص تتنامى بين علماء من اختصاصات مختلفة، ولا تعدم المدافعين عن صدقيتها. يبني بعضهم براهينه انطلاقاً من وقائع ومقاربات يريد بعضهم أن يبشر بصدقيتها بأن تنسب بشكل أو بآخر إلى أحد ميادين العلوم الإنسانية.

تقول سارة سولوفتش في بحث لها بعنوان (علم التنويم وماضي الصدمة):

"علّمنا فرويد أن نعود للوراء إلى طفولتنا المبكرة. بينما أعادنا (اوتو رانك) إلى رحم أمهاتنا.

والآن تأخذنا مجموعة صغيرة لكنها متنامية من المحللين النفسيين إلى أبعد من ذلك، فمن خلال التنويم المغناطيسي وتوجيه التفكير يستطيع المحللون النفسيون أن يعودوا بمرضاهم إلى خبرات حياة وموت سابقة، يزعمون أن صدماتها تواصل الحياة انطلاقاً من (ذكريات الروح). فالرجل الفرنسي الذي كان يعاني من آلام مستمرة في الرقبة تخيّل تحت تأثير التنويم المغناطيسي أنه يحيا في القرن التاسع عشر وأنه أعدم بالمقصلة، فاختفت كل آلامه". (٣)

وفي المادة السابقة نفسها، تورد الكاتبة مثالاً آخر:

"رجل أعمال كا يعاني من أعراض الذهان وجنون العظمة عندما يكتمل القمر في كل شهر تحت تأثير التنويم المغناطيسي. بدأ الرجل يتحدث عن شخص كان مجنداً في الجيش الأمريكي في أثناء الحرب العالمية الثانية وأُسر خلف خطوط الأعداء وبُدئ استجوابه بواسطة الجنود الألمان، أُخذ إلى أحد الأنهار ومع اكتمال القمر وانعكاس صورته على سطح النهر تم إعدامه". (٤)

لخصت الكاتبة بحثها، بالآتي:

"لو رفعنا الغطاء عن تلك القرون التي مرّت من زماننا، بدءاً من فساد القرون الوسطى في أوروبا حتى عظمة روما القديمة وفخامتها، فإن حيواتنا السابقة وقصص الحب والموت ظلماً قد تواصل بقاءها كذكريات للروح الطوافة... إن العقل البشري يشبه المكتبة المليئة بالسنين والصور والحوادث والكتب والأغاني وعروض التلفزيون، فكل شيء نراه ونسمعه محفوظ داخل العقل، لا شيء يُفقد، فقط بعض الأجزاء تختفي من الشعور ولكن، باستدعاء الشعور يمكن للإنسان أن يتذكر كل شيء". (٥)

من طرائف ما جاء في هذا البحث الموثق:

١- طرح بعض العاملين في التنويم أن نظام (ليمبك) هو مخزن العقل للانفعالات والذاكرة. يؤثر التنويم المغناطيسي فيه بحيث يمكن تقشير طبقات العقل لتبدو الكينونة أو الحياة فيها واضحة للمرضى الذين لا يدركونها وتبدو الحياة السابقة من خلال التنويم وكأنها شيء سابق التوقع.

٢- يروي براين ويز خريج جامعتي كولومبيا وبيل بدرجة الامتياز ويشغل وظيفة كبير الأطباء النفسانيين في كلية الطب في ميامي، وهو أيضاً متخصص في كيمياء القلب أن جاءته جان تشكو من صعوبة في البلع، تحت تأثير التنويم المغناطيسي رأت جان نفسها في حياتها السابقة، إذ كانت خادمة في أحد بلدان الشرق الأوسط، ورأت نفسها تقود عربة مليئة بالقش المبلل وقد سجنت في هذه

العربة وأصيبت بالاختناق... وبعد التنويم ومعاودة هذه الذكرى إلى ساحة شعورها اختفى ما كان لديها من أعراض الأزمة التي كانت تعانيها.

٣- كاترين تعاني من مخاوف مرضية تمنعها من النوم... أخضعها ويز للتنويم المغناطيسي.

تذكرت أنها في سن خمس سنوات غرقت في حمام السباحة، وفي سن الثلاث سنوات تذكرت ليلة عصيبة عندما تعرضت للتحرش الجنسي من قبل والدها المخمور. طلب منها ويز أن تعود بالذاكرة إلى ما قبل ذلك تذكرت أنها غرقت في فيضان عام 1863 ق.م، وذبحت عام 1473، وماتت بوباء في إسبانيا في القرن الثامن عشر... بعد عدة جلسات بدأت بالشفاء.

وبالعودة إلى معتقد التقمص في مسلك التوحيد، وهو ما يعنينا في تحليلنا الأنثروبولوجي لعدد من الروايات، هي ما (بين الصخور ما بين السطور، وحدث في ذلك الزمان) لوهيب سراي الدين، و(قصر المطر، وجهات الجنوب) لممدوح عزام، و(البراري، وأعمدة الغبار) لمحمد رضوان، و(العصف والسنديان، والحصار) لفوزات رزق، و(بانتظار القيامة) لنبيل حاتم، و(عباءة الريح) لمنير أبو زين الدين، وأخيراً رواية (دروز بلغراد/ حكاية حنّا يعقوب) لربيع جابر. الرواية الأخيرة جاء الاستشهاد ببعض مقاطعها، إضافة إلى سابقاتها التي ينتمي كتابها إلى محافظة السويداء، أم الأخير فلا، وإن اجتمعت هذه الروايات على أخذها الحديث عن التقمص من معين المسلك ذاته. نكتشف تشابهاً في النظر إلى هذا المعتقد يكون الاختلاف في تناوله ناتجاً عن الزاوية التي يحتاجها النص. وتأتي العبارات مصوغة بما يتحمله النص من جهة، وبمستوى فهم الكاتب لهذه الفكرة/ المعتقد من جهة أخرى.

وتتقيد أغلب هذه النصوص أو كلها بدرجات مختلفة، ولكنها ليست بعيدة عن بعضها، فيما يميز عقيدة التقمص في هذا المكان من البحث عنها في مطارح وعقائد أخرى، نختصرها بالآتي:

١- "روح الإنسان في تنقلها من حقل إلى حقل ومن أداة إلى أداة ومن مظهر إلى مظهر يكون لتختبر كل ضروب الحياة، وتدخل في مختلف الحالات من غنى وفقر، ومن عز وذل، ومن صحة ومرض... أن مرجعيته- أي التقمص- لا تخرج عن مبدأ أن تنقل الروح الإنسانية في مختلف حالات الحياة لا يعني بوجه من الوجوه أن هذه الحالات لا تفرض على الروح فرضاً، وتوجَب عليها قسراً... هذه الحالات المختلفة التي تختبرها الروح خلال تنقلها في كثافتها ما هي إلا نتائج ما تقدم به المرء باختياره، فمجازاة النفس بما كسبت". (6)

٢- يرتبط مفهوم التقمص بمفهوم ناتج عنه، وفيه ما يفسر صحة المعقد وهو مفهوم النطق أي تذكر الحياة السابقة. تذكّر الحياة السابقة ليس أمراً محتوماً باستمرار، ولكنه إن حدث يكون مرتبطاً بأسباب أخرى، قد يكون منها ما يذكره المقبوس التالي من تذكر حياة سابقة عند بعض الناس خلال تقمص اللطيف (الروح) وانتقالها من كثيف (الجسد) إلى كثيف:

"إذ تنتقل النفس من كثيف إلى كثيف قد يتسنى لها أحياناً أن تتذكر ما حدث في كثيفها السابق، وذلك إذا تيسر لها أن صادفت بعض الحالات التي تعينها على التذكر، كأن تفارق جسدها السابق وهي من اليقظة والوعي والانتباه في حالة قوية". (7)

٣- قد يكون من المفيد الانتباه إلى ما يميز هذه العقيدة عن العقائد المشابهة كالبوذية والهندوسية، على سبيل المثال، ففي هاتين الديانتين ترتقي الروح، أو تنحدر من مستوى إلى مستوى بحسب ما تحققه في حياتها. أما في مسلك التوحيد لا يُرى إلى التقمص أنه ارتفاع أو انخفاض لمرتبة الروح، بل أن روح الإنسان في تنقلها من حقل إلى حقل، ومن أداة إلى أداة ومن مظهر إلى مظهر إنما يتم لتختبر الروح كل ضروب الحياة.

أدخلت الروايات حكايات عن التقمص على ألسنة شخوص الروايات، تتفق حيناً مع عقيدة التوحيد الدرزي في بعض التفاصيل وأحياناً تبتعد، والاختلاف في هذا الشأن بين نص وآخر إنما يعود إلى درجة فهم الكاتب لهذا المعتقد، أو أن أحدهم قد يجتهد في تخليه للفكرة، أو أنه يعيد الأمر إلى ما تفرضه الشخصية في الرواية، من حيث مستواها الثقافي.

نبدأ مع رواية (دروز بلغرد/ حكاية حنا يعقوب) لربيع جابر. أُخرج محابيس بلغراد لأول مرة من غياهب سجنهم المعتم إلى الهواء الطلق مقيدين ليؤدوا عملاً من أعمال السخرة. تنقل الرواية وصفاً لما يتعلق بسلوكهم وتفسيراً لجانب من عقيدتهم على لسان حارسهم:

"اكتشف رئيس الحرس أمرا أغرب: هؤلاء الدروز يجتنبون النظر إلى القاطفات الموزعات في الكروم المجاورة! إذا دنت من مكانهم هنغارية أو صربية حمراء الثوب عارية الذراعين حدّقوا إلى التراب وتركوا رؤوس أصابعهم تقطف وحدها كما يفعل العميان! (...) وهم لا يدخنون. هذا صحيح. قوم عجيب. سأل شراوالي واحداً منهم لماذا لا يتزوجون إلا بامرأة واحدة ما داموا يقولون دوماً أنهم مسلمون؟ ردّ عليه إن كتاب الله أوصى أن نعدل بين زوجاتنا ونحن نخاف ألا نعدل (...) هل صحيح ما سمعه أنهم مثل أهل الهند يعتقدون أن الواحد منهم لا يموت حين يموت ولكن روحه تترك جسمه إلى جسم طفل يولد في تلك اللحظة؟... الروح تبدّل الجسم كما نبدل نحن القميص. ... هذا سبب زواجهم من امرأة واحدة لأن الواحد منهم عاش مئة حياة على الأقل من قبل وفي كل حياة يأخذ واحدة..." (٨)

في رواية بانتظار القيامة، وهي تجنح إلى التخييل أكثر من سواها ولكنها لا تقطع مع الواقع، يعيش كريم العمراني أجيالاً متواصلة في جيل واحد، أو أنه قد بدا له ذلك، يبرز التقمص في الرواية بصورة مختلفة عما ورد في الروايات الأخرى.

تجيء حكاية التقمص في سياق البحث في محاولة الكشف عن أسرار الحياة والموت. وتعيد الرواية ما ترويه عن تعدد حيوات الإنسان كفرد إلى بحث مخبري حديث انتهى إلى الإجابة عن أمنية جلجامش في العثور على ما يمنحه الخلود:

"أما كريم بن يوسف الحمداني، فإنه مجرد نطفة مختلفة ومتطورة أدخلته هذا الزمن الطويل الطويل، زمن أطول من حلمه الصغير، أن تعود روحه بعد الموت لتلبس قميصاً جديداً". (9)

وتتضح الصورة أكثر في الفقرة التالية التي لعب بها الكاتب على عقيدة التقمص إلى التمني بتداول الذكريات عبر أجيال كثيرة:

"الرسالة تركت في نفسي حالة من الشك ممزوجة بسعادة عميقة وعظيمة، إذ لو كان هذا صحيحاً فإني سأعيش أجيالاً متصلة دون أن أموت، وسأبقى حاملاً اسمي ومعرفتي وذاكرتي على مر السنوات المتعاقبة.." (٩)

يمضي الكاتب نفسه في لعبة الزمن الذي أخذ مساراً مختلفاً، كما يصوره هذا الحوار:

- **إذن أنت تعيش الآن جيلك الثاني؟**
- **لا الأمر ليس كذلك.**
- **تقصد أنك مررت بأجيال عدّة أخرى؟**
- **لست أدري، ربما هو جيل واحد طويل جداً يمر بأجيال الآخرين".** (١٠)

كأن الموت ليس أكثر من رحلة لا تطول فحياة أخرى آتية، وها هي قد صارت بين أسنان الضبع:

"ها هو موتها، يجلس الآن إلى جانبها برائحته الترابية رفعت يدها بهدوء عندما راودتها فكرة غريبة، أتراها تسمع صوت تحطيم عظامها بأذنيها بين أسنان أبي الكواسر؟

أغمضت عينيها وبدأت تقنع نفسها: الموت لن يكون مؤلماً مهما يكن شكله عندما يصبح أمراً محتوماً." (١١)

يعود الكاتب في صفحة أبعد من صفحات الرواية ليمنح خياله فرصة الاقتراب من فكرة التقمص التي صورها تصويراً مخالفاً لواقعها كمعتقد:

- **وأنا اسمي، زهر جدايل، وقد سبق أن التقينا يا سيد كريم في هذا الجيل وليس في جيل سابق... زلفى وزهر وسلمى.**
- **زهر.. زهر.. سلمى.. سلمى.. هل أنت هنا يا زلفى؟** (١٢)

في لحظة مكاشفة مع إحدى شخصياته، حيث تتداخل الأجيال، يخاطب كريم الحمداني زلفى أو زهر أو سلمى كشخص واحد تكرر فأخذ في كل جيل اسماً مختلفاً:

"... **الهالتان وعيناك ووجهك الذي أحسست أني أعرفه من أجيال سابقة..**" (١٣)

يبتعد الكاتب ولكنه لا يقطع الصلة مع فكرة التقمص، إذ أن تكرار الأقمصة لا يعني قدرة الآخر (كريم) مهما كان متقمصاً من جيل إلى جيل أو أنه عاش جيلاً طويلاً أن يعرف صاحبته أو يتعرف عليها من علامات جسدية فارقة وهي التي تنتقل جيلاً فجيل. الانتقال هو انتقال إلى جسد آخر لا تنتقل معه المظاهر الجسدية فلكل جسد سماته التي تختلف عن الجسد الآخر.

يُدخل صاحب بانتظار القيامة، كما فعل في روايته الأخرى (من ضباب أزرق) لعبة التقمص بصياغة مخالفة، ولكنها ليست بعيدة.

"**وداعاً الآن أنا ذاهبة إلى جيل جديد**". (١٤)

تخلص (بانتظار القيامة) إلى ملخص لمعتقد التقمص في الرسالة التي توجهها (لويز وندور) إلى أنكيدو:

"**إلى أنكيدو الصديق الحميم لجلجامش، لإن جلجامش لم يستطع منحك الخلود الذي كان يتمناه لك...**"

"**مررتُ بأجيال طويلة، وآمنت أن أمنية صديقي جلجامش أن يمنحني الخلود، كانت ومنذ بدء الخليقة، لكنها كانت تحتاج فقط إلى إيمان. مجرد إيمان صادق بأن الروح تلبس قميصاً جديداً بعد كل موت لقميصها القديم**".

لقد صدقتك الآن يا أنكيدو، وآمنت بكل حرف قلته لي، قد مررت بنفس تجربتك، وها أنذا أعيش جيلاً آخر، كان يكفيني الإيمان هذا، لأكتشف سرّ الخلود". (١٥)

الآخرون ممن تعرضوا لهذه العقيدة لم يدخلوها في الالتباس، لكنهم نقلوا صوراً مشابهة لما يتناقله بعض الأشخاص عن حوادث تدل، بحسب اعتقادهم، على التقمص.

ارتبط التقمص بالمعتقد، علماً أن منهم من نفى هذا المعتقد، بما يسمى النطق، أي أن بعض من يعون تقمصهم ينقلون من ذاكرتهم صوراً لحوادث جرت في جيل سابق. في رواية أعمدة الغبار يجيء الحديث عن التقمص في أكثر من رواية صريحاً واضحاً معّبراً عن أسس هذه العقيدة، أو ارتباطها بمنطلقات أخرى للعقيدة/ المبدأ، كما في روايتي محمد رضوان أعمدة الدخان والبراري:

"**وما الجسد إلا قميص من تراب، تخرج منه الروح باحثة عن نظفة تصونها، ثم تبعث في قميص آخر**".(١٦)

قد يُستدل من هذا المقبوس أن الروح تكمن في النظفة ثم تبعث في جسد جديد. هنا يفترق المضمون عن مفهوم التقمص بالنسبة للجماعة، حيث أن المعتقد يوضح الانتقال بأنه انتقال فوري من جسد بلي، أو انتهت صلاحيته بمعنى أوضح إلى جسد ولد في لحظته. قد يكون التعبير الذي جاء في الرواية معبراً عما يقترفه بعض الأشخاص العارفين بالمسلك. لكن الكاتب نفسه في مكان آخر من الرواية تأتي الصورة لديه أكثر قرباً من عقيدة المسلك في هذا الباب:

"**ماذا يريدون من الحرب؟ تساءل وهو يرى هؤلاء المؤمنين بالرضا والتسليم الموعودين بهما بالآخرة، يعرفون بأن أشد الليل حلكة وسواداً أقرب إلى الفجر. يثقون بعدل الله ونصرته وفرجه كلما اشتد عليهم الخناق ..واثقين أن حياة جديدة ستأتي حين يسقط أحدهم ميتاً أو شهيداً. الموت ولادة جديدة قميص من لحم**".(١٧)

تنتشر حوادث التقمص بين الناس ويروونها على أنها حقيقة، وأن بعض الانفعالات قد تعاود الظهور في الجيل اللاحق، كما في هذه الجملة:

"**اعتبر أمير الجبل أن هذا الجنون الذي يمارسه صاحب المعصرة– جدّه في الجيل السابق– لن يثنيه عن قتل مستشاره السابق**"(١٨)

وفي رواية البراري للكاتب نفسه أيضاً يجيء قوله عن التقمص موضحاً الكيفية التي تنتقل بها الروح لحظة مفارقة لجسدها الأول:

"**لكن روحه لم يكن لديها متسع من الوقت للانتباه إلى فوضى تلك الظلال، فحلّقت هائمة فوق الغمام تبحث عن جسد آخر أشد نضارة وألفة يقيها من التيه وعري الجسد القارس**".(١٩)

تأتي حكاية التقمص في صور مختلفة بين رواية أخرى، تمر مروراً خفيفاً في بعضها، لمرة واحدة أو أكثر من ذلك قليلاً وتشغل أمكنة لها في العديد من الأمكنة داخل النص الروائي.

في رواية الحصار لفوزات رزق، تخطر فكرة التقمص في استحضار (مدلّلة)، الشخصية الرئيسية في رواية الحصار، لبعض الذكريات عن زوجها المتوفي، متحسرة على وفاته وفراقه، قالت:

"**تمنت مدللة لو ظل جاد الله حيّاً وأكلا معاً خبز الشعير الجاف. لكنها تدرك الآن أن أبا إسماعيل أصبح شاباً الآن في جيله هذا، وتتمنى أن تعرف أين يعيش الآن**".(٢٠)

لأنه كما سبق ليس كل من تنتقل روحه من قميص إلى قميص يتذكر حياته السابقة. والأرملة كانت تمنى نفسها لو تعرف أين ولد زوجها وأين يكون الآن؟

أما وهيب سراي الدين، في رواية (حدث في ذلك الزمان) فيحدثنا عن لحظة نهوض الذاكرة السابقة التي لا يحكم النطق بما انتقل معها زمن معين أو سنّ محدد، بل تخطر فجأة عند ظهور قرينه تفتح الطريق لعبور الذكريات إلى الذهن، أو ليرى المتقمص مشهداً مما مر به في جيله السابق. المكان هنا أيقظ ما كان غافلاً عنه هذا الشخص المتقمص فأخذ ينضح من مخزونه القديم ببعض الذكريات:

"**أجل المكان نفسه، نعم تذكرت كل ما حدث وكل ما استودع في خلدي وعلمي، ليس في هذا الزمن، وما أصابني فيه من تعاسة. بل في ذلك الزمن الماضي.. تذكرت ما حدث فيه جيداً. فهذا كل شيء هنا ما زال على حاله، كما كنت قد تركته... متصل من قميص إلى قميص.. قبل خمس وسبعين سنة**".(٢١)

ولممدوح عزام اهتمام أكثر بحديث التقمص موزع في ثنايا رواياته (قطر المطر، جهات الجنوب، معراج الموت)، حتى يكاد التقمص أن يكون أحد أبطال رواية قصر المطر. يبدأ الحديث عنه من الصفحة الخامسة إلى الصفحة ٦٤٧. تهاجم الذكريات الغافية ذاكرة، أو خيال حسان الذي يظهر في بداية الرواية ليغيب عن صفحات عديدة ثم يظهر من جديد ليكمل حكاية تقمصه عن جسد كامل الفضل الذي قتله كنج الحمدان بنفسه أو بواسطة أحد رجاله، إنه يكاد يسمع الحوار لحظة مفارقته الحياة:

"**سبع رصاصات اخترقت الواجهة الغربية، واجتازت الممرات الكامدة، والتجاويف المشظاة والهامات المشرئبة، والهواء المصفر في القيظ، ثم استقرت في جسد ما إنه جسدي ....صاح فيهم فجأة (لا احكوا معه) انبجست فيه دفعة واحدة، ساعة مقتله قبل عشرين عاماً، لحظة لحظة وصار يرتعش وهو يقول: يمكن ما مات يمكن ما مات**".(٢٢)

ويحكي عن مولده من جديد فينقل ما شاهده أو ظنّ أنه شاهده لحظة ولادته:

"**تلك اللحظة، ذاتها التي تبعت الصوت الذي تردد في أذنيه (يمكن ما مات)، رأى مولده كأنما نفذ من ثغرة، كانت عماته، وخالتاه هناك، وكان بضع نساء جا لسات يتحدثن، وأخريات صامتات متناثرات. رأى رفّاً خشبياً على هيئة مثلثات متوالية التمعت على سطحه صحون وصوان ومناسف نحاسية ناصعة**".(٢٣)

هكذا تترى الذكريات وكأنها كانت محصورة في مكان مغلق فما تلبث صورة ما من زمن مضى تخطر حتى تتوالى الذكريات ويقص المتقمصون حكايات ويروون أحداثاً كأنها جرت الآن:

"**تذكر الآن ماضيه وعرف أنه عاش في جسد آخر في زمن آخر، وراحت الذكريات تعود مثل أسراب العصافير**".(٢٤)

قد يكون في استعادة صور قديمة شديدة التأثير على الذاكرة تهز الجسم الجديد هزاً يتناسب مع قوتها، وقد يدخل أحدهم في حالة من غياب الوعي، أو يصاب بتشنج يتلبس كل أجزاء جسده، يجد فيها الآخرون تذكره سبباً لمثل هذه الحالات:

"**لم يخطر ببالها بالطبع أن الوهن الذي أصابه كان سببه الإحساس المستعاد برعد الطلقات القديمة الذي اخترق الجسد السابق لروحه**".(٢٥)

تأتي الذكريات تباعاً حيناً ومتفرقة أحياناً أخرى. تذكر حسان، أيضاً:

"**شعر أن قرناً مضى قبل أن يأخذ بارودة خزاعي. تذكر أنه يتقن إصابة الإبرة. يطلق أول رصاصة أصابت الملثم الطويل... أما الثاني فأصابته في الكتف**".(٢٦)

يعترف حسان، أو أنه يفصح أمام أبيه بما أخذ يدركه من حاله وهو يتذكر ذلك الزمن البعيد:

"**حين سأله والده: أين تعلمت إطلاق الرصاص؟ أجابه بصوت مخنوق: يابا... أنا كامل الفضل**".(٢٧)

ويعترف حسان لمحاسن بهويته السابقة، حين ينقل لها حديثاً عن مجريات حدث قديم:

"**قال لمحاسن إنهم قتلوا أمام عينيه ثلاثة من الثوار، وأن ضابطاً صغيراً رفع رؤوسهم على حراب البنادق. فقام الرجل بقتل سبع ممرضات كالملائكة وتركوهم وراء الرجوم... هناك وراء التلال البعيدة.. كان القتلى يفترشون الأرض. قالت محاسن: ليش مين انت؟ قال حسان: ما بتعرفيني...**".(٢٨)

وعندما يلتقي حسان بكنج الحمدان قاتل كامل الفضل، يجري بينهما حوار قصير، ولكنه مثير:

"**التفت كنج نحوه، وقال مخالفاً تقليده:**

– مين انت يا شب؟

– حدجه حسان بعينين من نار، وسأله: ما عرفتني يا بو هايل؟

– ما عرفتك..

– أنا كامل الفضل يا كنج.

سمع حسان دمدمة كنج السوداء الغليظة للعسّال والله قتلك حلال في الجيلين".(٢٩) في رواية منيربو زين الدين (عباءة الريح) ترد حكاية عن التقمص كثيراً ما يحكي الناس حكايات مشابهة لها، تسترسل بها الرواية لتستغرق حوالي تسع صفحات، منها:

"**أيقظه صوت أمه من شروده:**

– ليش وقفت؟ استعجل في شيء؟

بقي صامتاً، ولم يجبها. راح ينقل بصره من جهة إلى أخرى، وكأنه وقع على كنز ثمين، حتى الوجوه يعرفها جيداً.

– يا أمي أنا نايف وبدي روح عالبيت

– نايف مين وبيت شو؟

– ياما أني كنت نايف، وهاي ضيعتي، وبدي روح على دارنا، ولازم شوف بيي أجود.

– يا حبيبي إنت رضوان وهذي مش ضيعتنا، ونحنا جايين من مكان بعيد منشان ناخذ العروس لابن عمك.

...كان حديثه الدائم بدي شوف بيي أجود... كان يشعر أنه غريب عن قريته (زويلة)...".[٣٠]

وتمضي الرواية بسرد حكاية الصبي:

"**رفع نظره باتجاه أبي نايف، وقال بتوجس: كيفك يا بيي؟... أني نايف...".**

ولا ينقطع الكاتب عن نقل الحكاية، ومثلها حكايات تروي في أمكنة أخرى وعن أشخاص آخرين، لم يستغرب أجود ما سمعت أذناه، بل نادى زوجته لتسمع ما سمعه:

"**تعالي شوفي نايف... انفجرت أم نايف بالبكاء، وسارعت إليه طوقته بذراعيها**".[٣١]

وبين استنكار أحدهم وعدم اقتناعه بما سمع، يتفوه الطفل رضوان بحكاية استغربها الجميع عن علاقة نايف بابنة الجيران التي منعه الاختلاف بالديانة الزواج بها، وظلت الحكاية سراً بين الشابين. فكيف يصدقون رواية لم يعرفوا بها في حينه؟ يحدثهم رضوان عن الخنجر والصليب اللذين دفنهما العاشقان في كرم الزيتون:

"**... سبقهما إلى كرم الزيتون باتجاه الصخرة.. على بعد نصف متر من سطح الأرض، كانت المفاجأة التي خلبت لبهما، قطعة قماش مهترئة، تناولها مناف ببطء، فتحها ليجد داخلها الخنجر وفوقة الصليب.. المفاجأة عقدت ألسنة الجميع، وأيقنوا أن هذا الفتى هو نايف**".[٣٢]

في رواية (معراج الموت)، وهي رواية سبق إصدارها رواية قصر المطر سنوات قليلة، ورد فيها حديث هامس خفي عن التقمص، ولكن بما لا يلمسه مباشرة بل كان نوعاً من الظن، لكنه يعبر عن اعتقاد بالتقمص به تؤمن الجماعة، أو أنها تجد من خلاله تفسيراً لحدث غامض، أو شرحاً لحالة أو سلوك يصدر عن أحدهم لكن ذلك يظل حائراً بين الشك واليقين، وكثيراً ما كان رواة مثل هذه الحالات يلحقون بها عبارة: والله أعلم.

"**بالعينين المفتوحتين كنافذتين، بالجسد المتراقص، لكنه يعرفه ربما عرفه منذ وقت طويل، وربما قبل أن يولد، أو في جيل سابق رآها ورأته، نُذرا معاً الواحد للآخر**".[٣٣]

الاستشهادات:

(١) محمد أمين جوهر: الدروز بين التوحيد والعرفان– ٥٣– دار التكوين ٢٠٠٨.

(٢) سامي مكارم: مسلك التوحيد– ٥٣– بيروت– ٢٠٠٨.

(٣) سارة سولوفتش: علم التنويم وماضي الصدمة– الثقافة العالمية ع٥٦– ١٨٧.

(٤) السابق ١٩١.

(٥) السابق ١٩٣.

(٦) سامي مكارم: السابق ١١٧.

(٧) السبق ١٢٠.

(٨) ربيع جابر: دروز بلغراد- ص٥١- دار الآداب بيروت ٢٠١٢.

(٩) نبيل حاتم: بانتظار القيامة- ص١٨- دار الحوار ٢٠١١.

(١٠) نبيل حاتم: السابق ص٥٠.

(١١) السابق: ٦٦.

(١٢) السابق: ٥٥.

(١٣) السابق ٢٦٨.

(١٤) السابق ٧٠.

(١٥) السابق: الغلاف الأخير.

(١٦) محمد رضوان: أعمدة الغبار ص ٢٤٦- وزارة الثقافة- ٢٠٠٨.

(١٧) السابق ٣٨.

(١٨) السابق ٢٢٠.

(١٩) محمد رضوان: البراري- ص٢٩٥- وزارة الثقافة- ٢٠٠٥

(٢٠) فوازت رزق: الحصار ص١٨- دار الطليعة- دمشق ٢٠٠٣.

(٢١) وهيب سراي الدين: حدث في ذلك الزمان ص ١٨- دار رسلان ٢٠٠٩.

(٢٢) ممدوح عزام: قصر المطر ص ٥- وزارة الثقافة- ١٩٩٨.

(٢٣) السابق ص٧.

(٢٤) السابق ص١٢.

(٢٥) السابق ص١٦٢.

(٢٦) السابق ص١٦٧.

(٢٧) السابق ص١٦٨.

(٢٨) السابق ص٥٥٨.

(٢٩) السابق ص٦٤٧.

(٣٠) منير بو زين الدين: عباءة الريح- ص١٧٥و ١٧٦- دار إنانا دمشق ٢٠١٠.

(٣١) السابق ص١٧٩.

(٣٢) السابق ص ١٨١.

(٣٣) ممدوح عزام: معراج الموت ص١٠٦- دار الأهالي- دمشق ١٩٩٠.